

جدلية الأممي والوطني: هل تفرض التحولات الإقليمية إعادة تعريف هوية القضية الفلسطينية؟

مجلة السياسة الدولية، مركز الأهرام للدراسات، نيسان (إبريل) 2013

د. أحمد جميل عزم

قال سامي أبوزهري، الناطق الرسمي باسم حركة المقاومة الإسلامية (حماس)، في غزة، في لقاء تليفزيوني في شهر مارس 2013، "نحن حركة فلسطينية لا يمكن أن تتدخل في شؤون مصر" (1).

وقال في لقاء آخر: "نحن بشكل واضح نقول إننا حركة فلسطينية، بغض النظر عن انتمائنا السياسي، وإخوان مصر جماعة مصرية" (2).

يعكس مثل هذا الخطاب من قيادي من داخل الإسلام السياسي تأكيدا للفكرة الوطنية، بتأكيد وجود "شعبين" مقابل الفكرة الأممية، فكرة "الأمة الواحدة". وبكلمات أخرى، تأكيد فكرة "الدولة الأمة"، مقابل فكرة "الأمة"، والإيمان بكل قطر عربي، باعتباره شعبا وأمة، بدل فكرة الإيمان بالوحدة الإسلامية، التي تجعلهم وحدة واحدة، قضاياهم مشتركة. وسيبدو وضوح عمق دلالات مثل هذا الخطاب، عندما نعود بالزمن عقودا أو قرنا، إلي ما كانت النخب الفلسطينية السياسية تقول به، بشأن تعريف بلدها وشعبها، وهو ما سنتوقف عنده في البحث، لاحقا.

ربما، لا يمكن الربط بين تصريح أبوزهري، الذي هو مجرد مثال علي تصريحات ومواقف كثيرة شبيهة يرددتها قادة "حماس"، بما شهدته المنطقة من انتفاضات وثورات منذ عام 2010. فالتحولات سابقة علي ذلك، ولكن مجريات الثورات، وشعاراتها، ومطالبها أكدت وعززت تحولا كان قد تبلور سابقا. عندما كانت الانقلابات تقوم في الدول العربية في الخمسينيات والستينيات، كانت تحدث علي يد أحزاب وضباط رفعوا شعارات الوحدة العربية، والتخلص من الاستعمار، وتحرير فلسطين، ولكن مثل هذه الشعارات غابت عن الانتفاضات العربية المشار إليها (3). فهل يعكس هذا الغياب تغيرا في الأولويات، والشعور في الهوية؟

يمكن رؤية غياب القضية الفلسطيني والشعار القومي، إلي حد كبير، عن الشارع العربي الثائر. إلا أنه وفي الوقت ذاته، لا بد من ملاحظة انتقال الثورات من بلد لآخر، علي نحو أشبه بسقوط أحجار الدومينو، وهو مؤشر علي رابط ما بين الشعوب والدول العربية. أي أنه بينما غابت مقولات الوحدة العربية، والقضايا المشتركة، مثل فلسطين، عن الحركات العربية، فإن انتقال "العدوي" من دولة لأخرى يدل علي رابطة ما خاصة.

علي أن الثورات العربية لم تسر علي الوثيرة ذاتها، وبالمطلقات والسماوات ذاتها، وتجليات الهوية في الحالات المختلفة متباينة. ويتناول هذا البحث هذه التجليات، مستشرفا أثرها علي القضية الفلسطينية. والفرضيات الأساسية لهذا البحث هي :

- 1) إن الهويتين الوطنية وتحت الوطنية (الفرعية)، من طائفية وغيرها، تتعزز علي حساب الهويات العابرة للدول من إسلامية وعربية
- 2) هناك تبلور لفكرة "الدولة - الأمة بهوية عربية إسلامية"، بدل مشروع "الدولة العربية، أو الإسلامية الواحدة".
- 3) تعزز التحولات الراهنة التعريف الوطني الفلسطيني، وتضاعف تراجع فكرة فلسطين كقضية عربية أو إسلامية.

تساعد الإجابة علي هذه الأسئلة علي استشراف المواقف الإقليمية العملية من القضية الفلسطينية، وتجهل التوقعات أكثر دقة بهذا الشأن.

للإجابة علي الأسئلة المطروحة، لا بد من البدء بتعريف الهوية، والمقصود بتحولاتها، وبعد هذا سيجري الاستدلال من هذا التعريف لاستقراء مشهد الهوية في السياقات الفلسطينية والعربية، وكيف تجلت في إطار الانتفاضات العربية.

1. "الهوية وتحولاتها":

ترتبط الهوية (Identity) ارتباطا وثيقا بالقوموية (Nationalism) ، المرتبطة بدورها بفكرة الأمة (Nation)، ويرتبط كلاهما بمصطلح الدولة - الأمة (Nation State) يعود تبلور هذه الظاهرة إلي القرن الثامن عشر، ونشوء الدول بشكلها المعاصر، في أوروبا، بما تحنويه وتعبّر عنه من مشاعر ورموز قوموية. وأدت هذه الدول وظيفة "توحيدية" (Unifying) ، لتأطير الطبقات، والقبائل، والعائلات، والإثنيات العرقية، والجماعات الدينية المختلفة، وذلك عبر إيجاد هوية أعلى (Transcendent Identity) ، وعلي سبيل المثال، هدفت الدولة الفرنسية التي نشأت، إثر الثورة الفرنسية، إلي "تأسيس دولة تمثل شعبا كاملا، لا مجرد مدينة أو طبقة" (4). فكانت الدولة القومية وعاء يذيب التباينات، ويحتوي الهويات الفرعية. وفي الوقت ذاته، أضعفت هذه الدول هوية أوسع، هي الهوية المسيحية. (Christendom) و"بشكل عام، يمكن تعريف الحركة القومية بأنها" "حركة سياسية ذات سمتين رئيسيتين، أولاهما: إعطاء أفراد في سياقها ولاءهم بالمقام الأول

لمجتمعهم الإثني أو القومي، وهذا الولاء ينحي ولاءهم لجماعات أخرى قد تقوم علي النسب، أو الأيديولوجيا. ثانيا: ترغب هذه المجتمعات الإثنية أو القومية في دولتها المستقلة" (5).

عريبا، هناك فرضية مسلم بها إلي حد كبير، هي أن الدول العربية الراهنة هي نتاج تفتت دولة أكبر، وأن غالبية الدول التي نشأت بعد الحرب العالمية الأولى، وسقوط الدولة العثمانية، نشأت دون هوية خاصة. فإذا كانت التجربة الأوروبية والعالمية تتحدث عن هوية يقوم أصحابها بالسعي لبلورتها في كيان سياسي خاص، فإن الذي حدث عريبا هو، إلي حد كبير، العكس، فقد نشأت كيانات سياسية تسعى لبلورة هوية خاصة بها. ولم تكن هذه العملية سهلة، فقد أدت لصراع بين من يريد تكوين دولة واحدة تعبر عن الهوية الجامعة (transcendent)، ومن يريد تكوين هوية تعبر عن الدول الناشئة في سياق ترتيبات استعمارية لمرحلة ما بعد الحرب. نشأت أحزاب قومية ودينية عابرة للأقطار، لها فروع متعددة، وتسعى لإذابة دولها في دول أكبر، مثل حركة القوميين العرب، وحزب البعث العربي الاشتراكي، وجماعة الإخوان المسلمين، والأحزاب الناصرية. وعلي مدي قرابة قرن من الزمن، كانت مسألة الهوية في الدول العربية قضية متفاعلة، ومتغيرة. وقد واجه الفلسطينيون سؤال الهوية، من حيث علاقتهم بالإطار الإقليمي الأوسع مبكرا. وسيتناول الجزء التالي من المقال كيف تفاعلت المسألة الفلسطينية، من زاوية الهوية، وتحديد العلاقة بين الفكرتين الوطنية والقومية الأممية، فيما يتناول الجزء الثالث الديناميات، وتفاعلات الهوية في الدولة العربية، خصوصا عشية التحولات الراهنة.

2. "تعريف القضية الفلسطينية في زمن "الدولة - الأمة" العربية :

تبنى الفلسطينيون، حتى نهاية الخمسينيات من القرن الماضي، مدخلا قوميا عربيا لقضيتهم، ورأوها جزءا من قضية عربية أوسع، ووجدت طروحات فلسطينية تدعو لإنجاز الوحدة العربية، باعتبارها طريق تحرير فلسطين، وحملت أطر العمل السياسي الأولي للفلسطينيين أسماء عروبية، فمثلا، كانت "اللجنة التنفيذية" المنبثقة عن المؤتمر العربي الفلسطيني لسنوات، و"المجلس الإسلامي الأعلى"، هما الهيئتين القياديتين اللتين قادتا العمل الفلسطيني ما بين عام 1918 ومنتصف الثلاثينيات. كذلك، تأسست عام 1946 "الهيئة العربية العليا"، لتكون ممثلا للشعب الفلسطيني. ونصت قرارات المؤتمر العربي الفلسطيني الأول، عام 1918، علي أن فلسطين جزء من سوريا، ولم تنفصل عنها يوما. وبدل التوقيع باسم فلسطين، استخدم المجتمعون اسم "جنوب سوريا"، واستخدم المؤتمر في وثائقه ومراسلاته في السنوات التالية

عبارات مثل "سوريا الجنوبية المعروفة بفلسطين"، أو "فلسطين، أي سوريا الجنوبية"، أو "مقاطعة سوريا الجنوبية المعروفة بفلسطين" (6).

وكان الفلسطينيون أصحاب الدور الأساسي في تأسيس حركة القوميين العرب، التي انتشرت في أكثر من بلد عربي في الخمسينيات (7). وحتى عندما تأسست منظمة التحرير الفلسطينية، عام 1964، ورغم أن من أهدافها إعطاء الفلسطينيين دورا رئيسيا في قضيتهم، فإن الخطاب العربي كان جليا. فمثلا، سمي أول ميثاق للمنظمة باسم الميثاق القومي الفلسطيني، وسمي مجلسها العام، أو الذي يفترض أنه يقوم مقام البرلمان، باسم "المؤتمر العربي الفلسطيني"، وهي أسماء ستتغير لاحقا، لتعطي بعدا وطنيا، وتمييزا لها عن "القومي" (8).

شعر الفلسطينيون بأن التعويل علي الحل العربي لا يحقق النتائج المرجوة، ولا بد من عمل فلسطيني مستقل. وتعزز هذا الاتجاه بعد هزيمة يونيو 1967، واحتلال إسرائيل الجزء المتبقي من فلسطين. وعلي صعيد التسميات، أصبح "الميثاق القومي الفلسطيني" هو "الميثاق الوطني الفلسطيني"، واستخدم اسم "المجلس الوطني الفلسطيني" بدلا من "المؤتمر العربي الفلسطيني". وتولت حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) قيادة العمل الفلسطيني. وأنشأت حركة القوميين العرب تنظيما فلسطينيا خاصا، أولا باسم "قيادة العمل الفلسطيني" عام 1963، ثم خلفت "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين" هذا الإطار (9)، فيما اختفت حركة القوميين العرب تدريجيا من باقي الدول العربية. وكان من منطلقات حركة "فتح" الأساسية تأكيد تولي الفلسطينيين قضيتهم. ففي أول بيان سياسي للحركة، عام 1959، جاء أن من الأهداف "العمل علي إبراز الشخصية الفلسطينية بمحتواها النضالي الثوري في الحقل الدولي، وهذا لا يتناقض مع الارتباط المصيري بين الأمة العربية والشعب العربي الفلسطيني" (10). وبالمجمل، كان هناك شعور عام بخيبة الأمل من مشاريع الوحدة العربية، والانقلابات المنكرة التي كانت تحدث ولا تؤدي لتغيير في حال الفلسطينيين، بل تستخدمهم وقودا في الصراعات الداخلية (11).

وجاء في مجلة "فلسطينيا"، الناطقة باسم "فتح" نهاية الخمسينيات، أن من أسباب النكبة واحتلال فلسطين "أننا لم نكن عنصرا أساسيا في قيادة المعركة". ورفضت الحركة التي ستقود منظمة التحرير منذ عام 1968 ترك تمثيل فلسطين لأي جهة عربية، وقالت "عرب فلسطين لا يمثلهم إلا أبناء فلسطين" (12). لا يعني هذا أن "فتح" دعت للانفصال عن الأمة العربية، بل قالت في نظامها الأساسي "إن معركة

تحرير فلسطين واجب قومي تسهم فيه الأمة العربية بكافة إمكاناتها وطاقاتها المادية والمعنوية" (13). وقامت نظرية "فتح" عموماً على فكرة أن يكون الفلسطينيون هم طليعة التحرير، وأصحاب القضية، مدعومين بجهة عربية مساندة، وكانت تريد طرح إنشاء مجلس عربي لفلسطين، لكن تأسيس المنظمة دفع لتحية الفكرة جانبا (14).

كرس تأسيس منظمة التحرير فكرة معالجة القضية الفلسطينية في إطار الدولة - الأمة، حيث يتولى الفلسطينيون أمرهم، وتتقلص أدوار الأنظمة العربية، ويزداد التركيز على الشأن الداخلي لكل دولة علي حدة، ويصبح دور الدول العربية هو الدعم، أي أن فلسطين ستصبح عملياً قضية خارجية تماماً، حتى وإن كانت لها أهمية خاصة. وأقرت القمة العربية في عام 1974 اعتبار المنظمة الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني. وكانت حرب أكتوبر 1973 آخر حرب عربية - إسرائيلية، أي بين إسرائيل ودول عربية. بعد ذلك، أصبحت الحروب بين إسرائيل وحركات مقاومة. وأصبحت العلاقة مع فلسطين علاقة أنظمة تدعم الفلسطينيين، وخصوصاً الدعم المالي، الذي تراجعت درجة الالتزام به مع الوقت أيضاً، وأصبح الأوروبيون والأمريكيون داعمين أساسيين للفلسطينيين. وتكرس الأمر مع توقيع مصر اتفاقية سلام مع إسرائيل، في نهاية السبعينيات، حيث تراجع الشق المصري من الصراع، وليس مجمل قضايا الصراع العربي - الإسرائيلي.

إذن، تجذر تدريجياً الإطار الوطني، ومحددات "الدولة - الأمة"، أي الخاص بكل دولة علي حدة، وأصبح هو محور السياسات العربية إزاء فلسطين. ولم يعد الحديث عن إنهاء الاحتلال الإسرائيلي حلاً لقضية فلسطين، بل إقامة دولة فلسطينية علي جزء من فلسطين. وتقلص حجم التوقعات الفلسطينية الشعبية من السياسات العربية. ويبدو أن هذا التقلص سيزداد بعد الربيع العربي، كما ستوضح الأجزاء اللاحقة من هذا البحث.

3. ديناميكيات "الدولة - الأمة" في حالة "الأمة العربية":
هناك ثلاث زوايا للنظر إلي تجليات وتحولات الهوية فيها، أثناء سنوات الحركات العربية الراهنة. فمن الزاوية الأولى، كان واضحاً أن الشعوب العربية تتحرك في إطار وطني، تنبثق أجدنتها السياسية إلي حد كبير من واقعها المحلي، وينضح هذا، كما سلف، من عدم رفع شعار الانتفاضات العربية قضايا مثل الوحدة العربية، أو فلسطين.

من زاوية ثانية، وبمقابل الزاوية الأولى، أبدت الشعوب العربية اهتماماً فائقاً، وتأثراً بما يحدث في الدول العربية الأخرى. وعلي سبيل المثال، لم تؤد الثورات الديمقراطية في أوروبا الشرقية، مطلع التسعينيات،

أو الثورة البرتقالية في أوكرانيا 2004 - 2005، أو الانتفاضة في إيران، عقب انتخابات 2008، إلى رد فعل يذكر في الشارع العربي، بينما أحدثت الثورات، بدءاً من تونس، تداعيات مفاجئة أقرب للخيال في دول عربية أخرى.

ومن زاوية ثالثة، كان واضحاً في الثورتين التونسية والمصرية معالم عصر "ما بعد الحداثة"، الذي يمر به العالم، من حيث تراجع دور الأيديولوجيا والأحزاب، وهذه حالة عالمية ترتبط بتزايد استقلالية الفرد. حيث هناك نوع من الفردية، بفضل العولمة، التي تعطي للفرد مدخلاً للمعلومات، والإعلام، والاتصالات، وحتى فرص عمل دولية عابرة للحدود بفضل الإنترنت. في الوقت ذاته، فإن هذا لا يمنع النزعة لدرجات من الأصولية والمحافظه، وإن كانت بنزعة أيديولوجية سياسية أقل نسبياً، وذات بعد اجتماعي أكبر. وفي هذا، يقول عالم الاجتماع الإنجليزي، أنتوني جندز، إنه يحدث نوع من تحولات الهوية، لا تختفي التقاليد، ولكن تتغير مكانتها، فالتقاليد تبقى ذات أثر قوي، وتلعب في المراحل المبكرة من الحداثة دوراً في تماسك المجتمع. ويتم اختراع تقاليد جديدة، أو إعادة اختراع عادات تقاليد قديمة، كذلك المتعلقة بالقومية، والدين. وعلي سبيل المثال، الفصل بين الجنسين، وحصر المرأة بالمنزل، والأصولية، يمكن أن تكون جزءاً من تقاليد مخترعة، أو معاد اختراعها (15).

ولكن إذا بدت الثورتان المصرية والتونسية "ما بعد حداثية"، واستطاعت الجماهير فيها منع خطاب الهويات الفرعية، الطائفية والمناطقية. وكان فيها غياب للقيادة الشعبية المركزية، وغياب نسبي للأيديولوجيا وأحزابها، فإنه في حالة اليمن، والبحرين، وليبيا، وسوريا، لم يكن التغاضي عن الهويات الفرعية الطائفية، والقبلية، والمناطقية، بالسهولة ذاتها. ولعل العودة لهذه الهويات الفرعية هي العودة، أو الاختراع للتقاليد التي يتحدث عنها جندز.

على أن تراجع الدعوة للدولة الجامعة، وتراجع الأيديولوجيا، لا يلغي أن الشعوب العربية في جزء كبير منها تريد تبني هوية ثقافية، أو سلوكية لها، منبثقة من الإسلام والعروبة. ولعل فوز الإسلاميين في الانتخابات في أكثر من دولة، بعد الانتفاضات، مؤشر على ذلك. ويعكس هذا الجمع بين الدولة القطرية، والهوية الجامعة، تمايزاً عن المفهوم الشائع للهوية القومية. فنتحدث هنا عن دولة وطنية بهوية أممية، بدل أن تعبر الدولة عن الهوية.

وهذا يفسر المواقف من الشأن الفلسطيني. فتارة، تنتظر الحكومات والشعوب للحدث الفلسطيني علي أنه أمر خارجي، ولا تتفاعل معه علي أنه شأن محلي. ولكن التأثير بروابط الهوية الثقافية، والدينية،

والتاريخية مختلف، يجعل القضية تبدو مؤثرة للغاية في الشارع أحيانا، وتحديدا عندما تتصاعد الأحداث في فلسطين.

لم تختلف هذه النزعة أو الأولوية الوطنية عندما وصل الإسلاميون للحكم، في دول مثل مصر، وتونس، دون أن يعني هذا أن هذه القوي ستأخذ بالضرورة مواقف شبيهة بالأنظمة التي سبقتها. إذا ما بدأنا بتونس، فإن مواقف مختلفة تم التعبير عنها، من قبل الإسلاميين، توضح كيف أن الأولوية الوطنية هي الأساس.

تم استقبال رئيس حكومة حركة "حماس" في قطاع غزة، في شهر يناير 2012، في تونس، من قبل حزب النهضة، ولم يكن مشهد إسماعيل هنية، وهو يلقي خطبا في الجماهير، متوقعا أو متخيلا في تونس في الماضي. للوهلة الأولى، بدا أن هذا أن الموضوع الفلسطيني ربما يتلقي دفعة قوية في ظل أنظمة جديدة، يقودها إسلاميون، وأن الإسلاميين الفلسطينيين سيحظون بدفعة قوية من نظرائهم الصاعدين للحكم. وحقيقة الأمر أن زيارة هنية كانت مجرد جزء من المشهد. فقبل الاستضافة، كان رئيس النهضة، راشد الغنوشي، يزور الولايات المتحدة الأمريكية، نهاية 2011. وحدث هناك خلاف مع معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى، الذي نشر أن الغنوشي زاره، وقال أثناء ذلك إن "بعض الثورات (في العالم العربي) نجحت، وبعضها في الطريق. اليوم، توشك الجمهوريات أن تنتهي. وفي العام المقبل، سيكون دور الملكيات. (16)" مثل هذه التصريحات تؤدي علاقات الغنوشي مع الدول الملكية، وخصوصا في منطقة الخليج العربية، ولذلك أنكرها في حديث لصحيفة الشرق الأوسط السعودية. وبحسب الصحيفة، اتهم الغنوشي جهات صهيونية في مركز واشنطن بـ"تلفيق" التصريحات. وقال أيضا: "كان حريا بهؤلاء الصحفيين أن ينتهتوا فيما ينشرون، وألا ينقلوا عن جهات صهيونية ومعروفة بتحيزها (في إشارة إلي مركز واشنطن) " (17). وقال السيد الفرجاني، عضو المكتب السياسي والمكتب الإعلامي بحركة النهضة، عن أطراف داخل معهد واشنطن إنها "جهات معروفة بميولها لإسرائيل، وحاولت أن تخلق مشكلة بين الأطراف العربية عن طريق تطويع الكلام، ووضعه كأنه موجه لبلدان الخليج" (18).

أهم ما تعكسه هذه القصة، بالنسبة لموضوع بحثنا، أن الغنوشي وحزبه لا يقفان موقفا حديا من التواصل مع جهات قريبة من إسرائيل وصهيونية. وبدا موقف إسلامي تونس، وتحديدا النهضة، أكثر جلاء في حديث الغنوشي في مجلس العلاقات الخارجية الأمريكي، في الجولة ذاتها، حيث قال "بالنسبة للقضية الفلسطينية، فإنها تخص الفلسطينيين بالدرجة الأولى، وتخص الأناس الذين يمثلون الشعب الفلسطيني، سواء أكانوا السلطة الفلسطينية، أم أي طرف آخر يمثل الشعب الفلسطيني. وإذا وصل الشعب

الفلسطيني إلي اتفاق مع الإسرائيليين، فإن هذه القضية لن تكون موضوعا رئيسيا في البلدات المسلمة الأخرى" (19).

هذه التصريحات لها شقان، أولهما تأكيد فكرة "الدولة - الأمة"، أي أن تونس باعتبارها دولة مستقلة لن تكون صاحب القرار في الشأن الفلسطيني، ولكن هناك تضامنا خاصا مع الشعب الفلسطيني، مع ترك القرار لممثليه.

أبدي الإسلاميون في مصر في موقفهم من العلاقة مع إسرائيل واتفاقيات السلام واقعية واحتراما للالتزامات الدولية، وقدموا خطابا متسقا مع منطق المسؤولية السياسية الرسمية، بعيدا عن الخطاب الشعبي والتصعيد. ولخص عصام العريان، نائب رئيس حزب الحرية والعدالة، حزب الإخوان المسلمين، الرئيس السابق للجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشعب المنحل، موقف الجماعة، في حديث لصحيفة "نيويورك تايمز" بقوله "هذا التزام دولة، وليس جماعة، أو حزبا، ولذلك نحترمه". ولكنه أضاف أن علي إسرائيل أن تعي مضامين الربيع العربي الذي أعطي العرب قدرة علي التعبير عن الغضب إزاء الاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية (20).

وفي تصريح آخر، أكد العريان أن مصر من حقها مراجعة اتفاقية السلام مع الكيان الصهيوني، إذا خفضت الولايات المتحدة المساعدات التي تقدمها لمصر. وأضاف: "المعونة كانت أحد التزامات الأطراف التي وقعت اتفاقية السلام، فإذا تم الإخلال من طرف فهو يبيح حق مراجعة الاتفاقية من جانب الأطراف الأخرى" (21).

هذه التصريحات تعكس في الواقع درجة عالية من الاهتمام بالأولويات الوطنية، فلم يطرح العريان مثلا إلغاء المعاهدة بسبب استمرار الاحتلال، أو عدم حل موضوع القدس، بل بسبب المساعدات. كذلك، أعلنت القوي الإسلامية السلفية، التي فازت بنحو 25% من مقاعد البرلمان المصري، أيضا احترامها للاتفاقية، ولكن مع استدراك أنها لا تدعم التطبيع أو تحسين العلاقات. في ديسمبر 2012، أكد يسري حماد، المتحدث باسم حزب النور السلفي المصري، في مقابلة مع إذاعة الجيش الإسرائيلي، أن حزبه سيحترم اتفاقية السلام الموقعة مع إسرائيل عام 1979 وقال في مقابلة عبر الهاتف من القاهرة: "نحن لا نعارض الاتفاقية، ولكن نحن نتكلم عن أن مصر ملتزمة بالمعاهدات التي وقعتها الحكومات السابقة". وأشار حماد إلي أنه "إذا كانت هناك بعض البنود التي يريد شعب مصر أن يعدلها في الاتفاقية، فهذه مكانها طاولة المفاوضات والتحاور"، مضيفا: "نحن نحترم جميع المعاهدات". وردا علي سؤال عن إمكانية قدوم إسرائيليين لمصر للسياحة، أوضح حماد أن "أي سائح يأتي إلي مصر

فسيكون مرحبا به بلا شك" (22). لاحقا، فسر حماد ما حدث بأنه لم يكن يعرف أن الصحفي إسرائيلي، وأنه أنهى المكالمة عندما أخبره بذلك، ولكنه لم ينف تفاصيل مثل موضوع قبوله بالسياح الإسرائيليين، وقال "قلت له إنه مرحب بهم، مادامت هناك اتفاقيات قائمة بين الطرفين" (23). وعقب الضجة التي أحدثتها التصريحات، أصدر الحزب بيانا رسميا، أوضح فيه أن الحزب "لن يعمل علي إلغاء اتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل، مشيرا في الوقت نفسه إلي أنه سيحاول تعديل "بنودها الجائرة" بكافة السبل المشروعة". وقال الحزب إنه يقف "بقوة ضد محاولات التطبيع والحوار بكافة صورته". ولكنه أوضح "أنه لا يصح الإقدام علي ما فيه ضرر لمصر وأبنائها، ويرى خطورة أن تنقض الدولة اتفاقية دولية من جانب واحد، وإن كانت قد أبرمت في ظل نظام ديكتاتوري". وأضاف البيان "إن هذا الموقف من الحزب لا يتعارض مطلقا مع واجبات مصر تجاه الأمة العربية والإسلامية، والتي تحتم عليها أن تدافع عن حقوق الشعوب العربية والإسلامية، وبخاصة إخواننا في فلسطين، والتي تلزمتنا بالسعي إلي نصرتهم، واسترداد كافة حقوقهم" (24).

ولعل تحليل موقف مصر، في ظل حكم الإخوان المسلمين، من الحصار علي قطاع غزة، الذي يحكمه أيضا الإخوان المسلمون (حركة حماس)، ومن الحرب الإسرائيلية علي القطاع عام 2012، بمثابة اختبارات لتجليات الأيديولوجيا والهوية، وهو ما سيكون متضمنا للجزء الأخير في المقال. ولكن استكمال المشهد يتطلب بحث الحالة السورية.

ففي سوريا اللصيقة بالشأن الفلسطيني، كما في الحالة البحرينية، دخل العامل الطائفي جزءا من المشهد. خلخل اختيار حركة "حماس"، والإخوان المسلمين، وخصوصا المصريين منهم، عدم دعم النظام السوري، معادلات عدة في المنطقة، منها التحالف القطر - السوري، مضافا له "حماس"، وحزب الله. وحتى إذا كان العامل الطائفي ليس ضمن حسابات "حماس"، فإن الانقسام في الثورة السورية أخذ بعدا طائفيا ما بين "علوي" و"سني"، مع اعتبار شريحة واسعة من المراقبين تأييد حزب الله وإيران للنظام السوري خليطا من الحسابات السياسية والطائفية، من حيث التحالف العلوي الشيعي. وبرز في المشهد التيار السلفي الذي يعادي العلويين والشيعية، حيث قاتل هذا التيار في سوريا ضد النظام، وقام بالتصعيد في لبنان ضد حزب الله. فحتى لو كان البعد الطائفي ليس دافعا أساسيا، أو أصليا في الحراك السوري، ولدي شرائح أساسية فيه، فإن جزءا كبيرا من المشهد صُبع بصبغة طائفية (25). وأدي التباعد بين "حماس" والإخوان من جهة، وحزب الله من جهة أخرى، لتعزيز صورة فرز طائفي. هذا من شأنه أن يؤدي إلي تخفيض التوقعات بشأن نشوء أنظمة قوية تقدم للفلسطينيين أملا جديدا، ويعيد للأذهان خيبات الأمل من انقلابات الخمسينيات.

4. تعزيز التعريف الوطني للقضية الفلسطينية عقب الثورات العربية :

انضم التيار الإسلامي للتعريف الوطني للقضية الفلسطينية جزئياً، منذ وقت طويل نسبياً، فأستت جماعة الإخوان المسلمين الفلسطينية حركة مقاومة شعبية ومسلحة نهاية الثمانينيات (حماس)، سرعان ما أصبحت تعبر عن خصوصية وطنية فلسطينية تغدو مع الوقت أكثر وضوحاً. وعلي سبيل المثال، ارتبطت هذه الحركة مع النظام السوري بعلاقة تحالف حتى عام 2011، وكان هذا التحالف رغم العلاقات السيئة بين النظام السوري والإسلاميين السوريين، ووجود قانون سوري يقضي بالحكم بالإعدام علي من ينتمي لجماعة الإخوان المسلمين. كذلك، هناك تقارير إعلامية متواترة عن انفصال رسمي بين "إخوان" فلسطين وجماعة "الإخوان المسلمين" في الأردن، والتي كانوا يعدون جزءاً منها، وتحولهما إلي تنظيمين مستقلين (26).

ارتفعت توقعات الإسلاميين الفلسطينيين كثيراً، بعد وصول الإسلاميين للحكم في تونس، ومصر، ولكن ذلك لم يستمر طويلاً.

احتفل قادة "حماس" في غزة بفوز الإخوان المسلمين في الانتخابات التشريعية والرئاسية في مصر، ووزع رئيس الوزراء المقال، إسماعيل هنية، الحلوي بنفسه في الشوارع، احتفالاً بفوز محمد مرسي بالرئاسة، ورفع العلم المصري بالمناسبة، وبدأ يعلن عن استعدادات لزيارة شعبية ورسمية كبيرة إلي مرسي (27). لكن المواقف والتصريحات الرسمية المصرية لم تقدم لحماس ما توقعته. فمثلاً، لم يخالف النظام الجديد البروتوكول، وأجل مقابلة هنية إلي ما بعد لقاء الرئيس الفلسطيني، محمود عباس، الخصم لقيادة "حماس" (28). وبخصوص العلاقة مع الفصائل الفلسطينية، قال مرسي "نقف علي مسافة واحدة من الفصائل الفلسطينية" (29).

كانت هناك تعبيرات مختلفة عن خيبة الأمل، من قبل (حماس)، من الحكم الإخواني في مصر. فعل سبيل المثال، قال فتحي حماد، وزير الداخلية، في حكومة غزة، في أغسطس 2012، موجهاً كلماته للقيادة المصرية: "إن لم تكن فلسطين بين أعينكم، فعليكم تعديل البوصلة والمسار" (30). وشارك، في نهاية سبتمبر 2012، قياديون في "حماس" في مسيرة علي الحدود مع مصر، تطالب الرئيس المصري بوقف إغلاق الأنفاق التي تربط بين غزة ومصر، والبدء بإقامة منطقة حرة علي الحدود، وفتح معبر رفح، ورفع الحصار كلياً (31).

رغم الابتهاج في غزة من مواقف وإشارات للنظام المصري، إبان حرب إسرائيل علي القطاع، عام 2012، من نوع زيارة رئيس الوزراء المصري، هشام قنديل، إلي القطاع أثناء الحرب، فإن التدقيق في

كلمات خالد مشعل، عندما شكر القيادة المصرية، يوضح حدود التوقعات والعلاقة الجديدة. إذ قال رئيس المكتب السياسي لحماس: "اختبروا مصر، فظهرت مصر بثورتها ووجهها الوطني القومي الذي نعرفه عنها منذ رأينا النور". وأضاف: "تداعي العالم إلي مصر، وطلب منها أن ترعي اتفاقا للتهدئة. وبكل أمانة، قامت مصر بالمسئولية بروح متكاملة، روح الدولة المحترمة التي وسطها العالم، وقامت بواجبها، ولم تنس واجبها القومي العربي الإسلامي". وأوضح: "مصر لا باعت القضية، ولا ضغطت كما يقول البعض، بل تفهمت مطالب المقاومة ونقلتها بكل أمانة" (32). هذه الكلمات تعني أن الدور المصري بقي في إطار الوساطة، ولم يخرج عنه كثيرا، ولم تحصل إعادة اصطفاف. ولعل ما يؤكد هذا أن كلا من الأمريكيين والإسرائيليين شكروا الرئيس المصري. فقالت وزيرة الخارجية الأمريكية، هيلاري كلينتون، في مؤتمر صحفي مع نظيرها المصري محمد كامل عمرو، أثناء الحرب: "أود شكر الرئيس مرسي علي شخصيته القيادية" (33). ووصف الرئيس الإسرائيلي، شيمون بيريز، ما قام به مرسي بأنه "مفاجأة لطيفة" (34).

وفي أحدث التعبيرات عما يمكن اعتباره علي الأقل قلقا حماسيا من تأثير آفاق التطور السياسي في مصر، عقب ثورة 25 يناير 2011، في القضية الفلسطينية إجمالا، وفي الموقف من حركة "حماس" خاصة، يبرز تصريح هنية، يوم 18 أغسطس 2013، خلال مؤتمر (الشباب والقضية الفلسطينية في ظل الربيع العربي) بأن "مصر بعد الثورة باتت كنزا استراتيجيا لفلسطين والقدس، بعد أن كانت كنزا للاحتلال بفعل حكامها"، قبل أن يستدرك محذرا من أن "الثورة المصرية أمام ثلاثة تحديات، أولها: التخلص من بقايا الأنظمة الفاسدة التي تحاول الانتفاخ علي الثورة. التحدي الثاني يتمثل في الإعلام الذي يحاول أن يشغل بال وفكر الشعوب عن قضيته المركزية فلسطين، ويصرف الملايين لإنجاح ذلك. التحدي الثالث مائل بالتدخلات الخارجية التي تسعى لإفشال الثورات العربية، واحتوائها، والتقليل من تأثيرها" (35). ورغم أن هذا التصريح جاء في معرض رده علي اتهامات ترددت في بعض وسائل الإعلام المصرية عن تورط عناصر من حركة حماس في قتل 16 عسكريا مصرية جنوب منطقة رفح الحدودية، في أغسطس 2012 (36)، وهي التهديدات التي وصفها هنية بأنها "حملة تشويه" إعلامية "تقلب الحقائق، وتزييف الوقائع، وتخلط الأوراق"، فإن هذه التصريحات تعكس في الوقت ذاته حالة عدم ثقة ومراوحة حماسية من تأثير المآلات التي يمكن أن يفرضي إليها التطور السياسي في مصر.

خاتمة:

تأكد في الانتفاضات الشعبية التي شهدتها المنطقة العربية، منذ نهاية 2010، تركز السياسات والأولويات الوطنية القطرية، وهذا ما انعكس أيضا في سياسات الحركات الإسلامية، التي اتضح أنها،

شأنها شأن غيرها، تلتزم بالأولويات الوطنية، وبالدولة - الأمة، حتى وإن رأت أن الإسلام هوية ثقافية لهذه الدول.

لم يحدث انقلاب أو تحول جذري بوصول الإسلاميين للسلطة، سواء من حيث النظرة إلي وحدة العالم العربي، أو من حيث المواجهة مع إسرائيل. وعلي العكس، كان هناك حرص علي التأكيد للولايات المتحدة والعالم بأنه ليس هناك تغير كبير في المواقف عن الأنظمة السابقة بشأن إسرائيل. هذا من شأنه إضعاف فكرة الحل الأممي للإسلامي للقضايا التي تبدو مشتركة، وتأكيد أن الدولة القطرية هي المعيار، وتأكيد وطنية الحركات الإسلامية.

في الوقت ذاته، فإن التشطي الطائفي في دول عربية عدة من شأنه أيضا أن يقلص أي توقعات بحلول غير وطنية للقضايا المختلفة.

ولعل أحد أهم تجليات هذا التعريف الوطني أن الدولة الفلسطينية، ولو علي جزء من فلسطين، أصبحت أيضا محور البرنامج السياسي لحركة "حماس" في المرحلة الراهنة. فمثلا، قال مشعل - في لقاء مع شبكة تليفزيون "سي إن إن" عقب الحرب في نوفمبر 2012 - "أنا قائد حماس، أخبر العالم، نحن مستعدون لاستخدام طريقة سلمية، حقا طريقة مسالمة، دون دماء أو سلاح، ما دمنا حققنا مطالبنا الفلسطينية". وحدد المطالب ب"إنهاء الاحتلال، ودولة فلسطينية، وإزالة الجدار".

الهوامش:

1. وكالة قدس نت للأنباء، أبوزهري: حماس تحترم الدولة المصرية بغض النظر عن الحاكم، نقلا عن قناة دريم المصرية، 7 مارس 2013.
2. لمتحدث باسم حماس: دخول السلاح لغزة ليس جريمة. ولا يستطيع أحد منعه، مقابلة، الراية القطرية، نقلا عن الوطن المصرية، 11 مارس 2013 :
<http://www.raya.com - news - pages - cbc818b3-2512-4177-8578-58c020d0950d>
3. انظر أحمد جميل عزم، كل السياسات داخلية، موقع القضية الفلسطينية في العصر العربي الجديد، السياسة الدولية، العدد 186.
4. Hass Kohan ،The Idea of Nationalism ،A Study in its Origin and Background (New York: Mecomillan ،1946) ،p.3. See also ،Ernest Renan ، "What is a Nation" ،lecture given in Paris on 11 March 1882 ،in Goff Eley & Ronald Grigor Suny (eds) ،Becoming National (A Reader) (New York & Oxford ،UK: Oxford University Press ،1996) ،p.42.
5. Michael Brown (ed.) ،Theories of War and Peace: An International Security Reader (Cambridge ،Mass. & London: MIT Press ،1998) ،p.258.
6. لأمثلة علي هذه الوثائق، انظر: بيان نويهض الحوت (إعداد للنشر)، وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية، 1918 - 1939، من أوراق أكرم زعيتر، (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1979)، ص 14 - 17.
7. انظر باسل الكبيسي، حركة القوميين العرب، (بيروت: دار الطليعة، 1974)، ص 40 - 41، 51، 66.
8. في اللغة العربية، وخصوصا منذ منتصف القرن العشرين، فإن القومي يعني إلي حد كبير العربي، فالقومية هي العروبة. أما الوطنية، فتعني المحلي، أو الهوية التي تتعلق بالوطن (الدولة)، هذا مع أن الاستخدام ليس هكذا دائما. فمثلا في أكثر من دولة عربية، يطلق علي البرلمان مسمي "مجلس الأمة"، أو استخدام مسمي "المجلس القومي" في مصر للدلالة علي هيئات من مثل "المجلس القومي للمرأة"، و"المجلس القومي لحقوق الإنسان"، وسوي هذا.

9. Yazid Sayigh ,Armed Struggle and the Search for State ,The Palestinian National Movement 1949 – 1993 ,(Oxford: Oxford University Press ,1997) ,p. 108 ,131.
10. عصام عدوان، حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح)، 1958 – 1968، (القاهرة: مكتبة مدبولي، 2010)، ص 116.
11. إبراهيم أبراش، البعد القومي للقضية الفلسطينية: فلسطين بين القومية العربية والوطنية الفلسطينية، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1987)، ص 51.
12. عصام عدوان، مرجع سابق، ص 116.
13. المرجع السابق، ص 121.
14. المرجع السابق، ص 122.
15. Anthony Giddens ،Beyond Left and Right ،The Future of Radical Politics ،(Cambridge: Polity Press ،1994) ،p5.
16. Concerning Mr. Rachid Ghannouchi's Visit to The Washington Institute ، Featuring Audio of Rachid Ghannouchi's Remarks ،20 Dec 2011: <http://www.washingtoninstitute.org – templateC.07phpCID=592>
17. نادية التركي، الغنوشي لـ"الشرق الأوسط": التصريحات المنسوبة لي عن الثورات في الممالك العربية "ملفقة"، الشرق الأوسط، 17 ديسمبر 2011.
18. نادية التركي، "معهد واشنطن" يبيث تصريحات الغنوشي. والنهضة تتمسك بتكذيبها، 6 يناير 2012.
19. Council on Foreign Relations ،Tunisia's Challenge: A Conversation with Rachid al – Ghannouchi ، <http://www.cfr.org – tunisia – tunisias – challenge – conversation – rachid – al – ghannouchi – p.26660>
20. David D. Kirkpatrick ،Islamists in Egypt Back Timing of Military Handover ،The New York Times ،8 January ،2012.
21. المصري اليوم، "العريان": مصر قد تراجع اتفاقية السلام مع إسرائيل إذا خفضت أمريكا المساعدات، 16 فبراير 2012.

22. الشروق المصرية، حزب النور السلفي في مقابلة مع إذاعة الجيش الإسرائيلي يؤكد احترامهم لمعاهدة السلام، 21 ديسمبر 2011.

23. أحمد عبدالراضي، يسري حماد: مراسل الإذاعة الإسرائيلية أوهمني بأنه صحفي عراقي، اليوم السابع، 25 ديسمبر 2011

24. الجزيرة. نت، حزب النور يؤكد التزامه باتفاقية السلام، 25 ديسمبر 2011 :
<http://www.aljazeera.net - news - pages - f96a2c6f - f809 - 49b7 - bd3e - 8e16f788675c>

25. لمزيد من المعلومات حول المشهد الطائفي، انظر :

Stop Trying to Make Syria's War Into a ، - Elizabeth Shakman Hurd
15 March 2013: ،The Atlantic.com ،Sectarian Conflict
<http://www.theatlantic.com - international - archive - 03 - 2013 - stop - trying - to - make - syrias - war - into - a - sectarian - conflict - 274060>

26. انظر: صحيفة الشرق الأوسط، 26 يوليو 2007، الحياة الجديدة (الفلسطينية)، 2 مارس 2012.

27. فتحي صباح، هنية يزور مصر ويلتقي محمد مرسي، الحياة، 6 يوليو 2012

28. أبو مرزوق: الرئيس "مرسي" مهتم بالملفات الفلسطينية، فلسطين أون لاين، 23 يوليو 2012.

29. الرئيس المصري: نقف علي مسافة واحدة من الفصائل الفلسطينية، الشرق الأوسط، 14 يوليو 2012.

30. أخبار اليوم (المصرية)، "داخلية المقالة" تطالب الرئيس المصري بفتح دائم لمعبر رفح، 13 أغسطس 2012.

31. حماس تحذر من انفجار بقطاع غزة، الجزيرة. نت، 30 سبتمبر 2012.

32. الجزيرة. نت، مشعل: إسرائيل فشلت في تحقيق أهدافها، 22 نوفمبر 2012.

33. Richard Spencer ،Egypt's President Feted for Negotiation Role ،33. The Daily Telegraph ،22 November ،2012.

34. Reena Ninan ،Egypt's President Morsi Wins U.S. and Israeli Gratitude in Gaza Deal ،ABC news ،21 November ،2012.

35. هنية: مصر تاريخ ومستقبل وذخر استراتيجي ومن يخونها يخون الدين، صحيفة "الشرق الأوسط"، 19 أغسطس 2013

36. الأهرام العربي تتفرد بنشر أسماء منفذي مجزرة رفح، مجلة "الأهرام العربي" المصرية، العدد 834، 16 مارس 2013.

<http://arabi.ahram.org.eg – NewsQ –.24135.aspx>